اختبارات روحية

(٤)

في سماء الروح

اختبارات حكيمة من آداب الرهبنة القديمة

الخمسة فصول الاولى من كتاب « حكمة الصحراء »

نقلها الى العربية

بالمير

اكتوبر ١٩٤٨

تعريب : فوزي عبد المسيح

المقدمة

على أثر التأملات الهادئة والبحث العميق الذى أتمه مؤلف إيرلندى قديم عن الاختبارات الروحية التى استنبط مواضيعها من حياة الرهبان ـ دون المؤلف كتابه الذى سماه « حكمة الصحراء » . ويعد كتابه هذا فتحاً جديداً فى آداب الرهبنة المسيحية ، وإن كان لا يعتبره سوى محاولة لبعث المثل العليا الروحية القديمة التى اتبعها النساك فى العصور الأولى .

ولقد تأثر المؤلف فى بحثه كثيراً بالرهبنة المصرية ، ونوه عن الكثير من مآثرها على الوعى المسيحى العالمى . ولما كان الكتاب يحوى فصولا عديدة فلقد آثرنا أن نضم خمساً منها فقط فى هذا الكتيب شاملة ـ على ما حسبنا ـ اختبارات تدريجية تنهض بالمؤمن إلى درجة عليا من درجات الكمال المسيحى . فهو يبدأ بالبحث عن الله والكشف عن كنزه الثمين وينتهى إلى محبة الأعداء التى يوصلنا اليها مبدأ الفناء فى الله مصوراً فى الفصول الثلاثة الوسطى .

ولقد حرصنا أن نترجم هذه الفصول على علاتها من حيث أسلوب الكتاب ، ووضع الأقوال والقصص المأثورة وراء كل فصل بحيث تحكى عن ذات موضوعة . وسوف نحرص ـ لو أذن الرب ـ على ترجمة بقية فصول الكتاب الأصلى فى كتيبات أخرى .

الفصل الأول

الكنز المخفى

« أيضاً يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفى فى حقل وجده انسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل » (متى ١٣ : ٤٤)

« ومن وجد يسوع فقد وجد كنزاً عظيماً بل خيراً يسوع على كل خير » (الاقتداء بالمسيح ٢ : ٨)

لعل الرغبة فى معرفة الرب هى فى الغالب أول دفعة للحياة المتدينة . فان الروح البشرية تعيد ذكر نفس السؤال الذى وجهه اليونانيون قديماً إلى فيلبس « ياسيد نريد أن نرى يسوع » . ولعل مجرد الرغبة السابقة فى الانسان كافية كل الكفاية ان تريه الرب . أما الظروف المعاكسة اللاحقة فقد لا يكون لها أدنى تأثير على هذا الشعور بالرؤية . لأن ذاك الذى يرى يسوع مرة ، يستمر فى رؤيته ومن ثم تزداد عنده الرغبة ان يراه .

وقد يتناسب ازدياد الرغبة طردياً مع مقدار وضوح المرئى . فان كانت المرآة مهشمة يكون انعكاسها معتماً فيبدو الشكل مختلطاً ذا خطوط متشابكة متعرجة . ويسوع بالحرى يبدو فى صورة مهوشة كما لو كان مرآة مختلطاً بأشياء أخرى تظهر أشكالها معه فى المرآة . والناس الذين يرونه يرغبون أن يروه فى صورته الحقيقية الكاملة . الا أن هذه الرغبة ليست هى كل ما يرمون اليه لأن هناك رغبات أخرى باهتة ومختلطة معاً . انهم يرغبون فى أشياء أخرى مثلما يرغبون فى رؤية يسوع . وبرغم أنهم لا يرغبون الا تلك الأشياء التى لا تتعارض رؤيتها مع رؤية الرب الا أنهم على كل حال يرغبون فى أشياء أخرى خلافه . أما بالنسبة للنادر من النفس فالمرآة تبدو صحيحة وانعكاسها يصبح أكثر وضوحاً . ومن ثم فان الرؤية لهؤلاء يكون مرغوب فيها أكثر من الأول حتى ان مجرد رؤيتهم يسوع مرة واحدة

يدعهم لا يريدون أن يروا سواه بعد ذلك فان املهم ومرماهم ليس فى قصد آخر سوى رؤية يسوع .

والاختلاف بين طريقتى الرؤية هاتين ليس سوى اختلاف فى الانشغال بالمرئى. ويوحنا الراثى انشغل جداً به إذ رأى الرب « فى وسط السبع منابر شبه ابن انسان متسربلا بثوب إلى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب » رؤ ١ : ١٣ . ولعلنا ندرك فى بساطة أن أولئك الذين يرون بوضوح هم أولئك الذين لهم الانشغال الأكبر . بل لعلنا نعرف انه لابد ان تكون طريقتهم فى الحياة أصعب طريقة عرفتها طبيعتنا البشرية . انها تلك الحقيقة التى تعنى أنهم حين يجدون الكنز مخفى فى الحقل ينشغلون بالرغبة فى امتلاكه حتى من فرحهم يبيعون كل ما لهم ليشتروا الحقل . وهذا يعنى انهم إذ يرون يسوع لا يجدون أحداً مرغوباً فى رؤيته أكثر من يسوع . قد يبدو للناس دائما أنه من المدهش والصعب عليهم أن يطلقوا كل شىء لأجل الربح الروحى . ولكن بالنسبة لأولئك الذين يرون الرؤيا واضحة وينشغلون بها ليس ذلك صعبا عليهم - إذا ما استثنينا طبيعة الجسد الضعيفة . ولقد قيل عنهم فى الانجيل انهم من أجل « النصيب الصالح » يذهبون ويبيعون كل شىء .

ومن بين اولئك الذين انشغلوا كلية بمعاينة الرب ليس أفضل من المتوحدين فى صحراوات مصر فهؤلاء لأنهم لمسوا الرب فى حياتهم بوضوح ، ولأنهم رؤوه دائما فى حياتهم اليومية ، كانوا أكثر من الجميع رغبة وانشغالا فى رؤية يسوع . ولعل القصص والروايات المأثورة عنهم فى هذا الفصل تحكى لنا غايتهم من الرغبة المقدسة . فقد قيل عن الراهب « ماكيدونيوس » أن جهاده فى متابعة الرب والاقتداء به يشبه الجهد المبذول من الصياد فى متابعة صيده ، وهو شخصيا لم يفكر يوما ان يتوقف عن اصطياد الرب . أما عن المغبوط « يوحنا » فقد كان يدرك أن مغريات الحياة لن تستطع أن تعطل روحه الوثابة عن أن تمضى فى حياة عشرة مع يسوع . أما القديس « ارسانيوس » الذى كان يوما ما ذا منصب كبير

فى بلاط القصر الامبراطورى فقد عرف أن كل رغبات العالم لا تساوى شيئا نظير الرغبة فى رؤية يسوع . وكم كانت اختبارات المغبوط « ألويس Allois » عجيبة فى موضوع ضرورة بعد النفس عن العالم لكى تسكن مع الله ولا أحد سوى الله .

ولعل حياة هؤلاء النساك تمدنا بكثير من الأمثلة الكاملة للاختبار المسيحى الراقى . فانهم ـ أكثر من أية جماعة أخرى ـ لمسوا القيمة الحقيقية لهذا الكنز المخفى . وبرغم ان جهادهم فى الحياة كان جهاداً طويلا مضنيا إلا أنهم ـ حين باعوا كل شىء فى الحياة ـ تحققوا من فائدة شرائهم لهذا الكنز لما حصلوا عليه . فلقد رأوا يسوع ومن ثم رغبوا أكثر أن يستمروا فى رؤيته ورغبتهم هذه اضطرتهم أن يقتفوا أثره فى القداسة « التى بدونها لن ير أحد الرب » وهذا هو سر حياتهم ، فانهم قد صمموا بكل ثمن أن يصبحوا أبراراً مثله بطريقة ما ، ولأنهم قد رأوه بوضوح فقد علموا أنهم لن يستمروا فى رؤيته الا بنعمته التى ينمون فيها ليكونوا مشابهين له .

* * *

١ ـ لنعمل لامتلاك الله مثلما يعمل الناس بفرح لامتلاك المكاسب الضئيلة

† جاء مرة أحـــد الضباط المولعين بالصيد إلى الجبل القفر الذى سكنه « ماكيدونيوس » يطلب صيد حيوانات متوحشة . ولقد كان مستعداً للصيد ، فقد أحضر معه عدداً من الرجال والكلاب . وإذ تسلق الجبل رأى على بعد رجلا . ولما كان مندهشا ، إذ مَن من الناس يعقل أن يعيش وحيداً فى هذا المكان القفر ، سأل عمن هو . فأجابه واحد من رجاله أنه الراهب « ماكيدونيوس » وإذ كان الضابط تقيا نزل عن حصانه وأسرع لمقابلة الأب . ولما اقترب منه سأله « ماذا تفعل فى هذا المكان الموحش القفر ؟ » فأجابه الراهب متسائلا بدوره « وانت ؟ ماذا دعاك للاتيان هنا ؟ » أجاب الضابط « لقد أتيت لأصيد » حينئذ رد « ماكيدونيوس » « وأنا أيضا رجل صيد . انما انا أصيد الهى . انى أصارع لاقتنصه . فرغبتى أن استمتع به ولن اتوقف عن عملى هذا » .

٢ - لنبع ما لنا لنشترى الكنز

† طلق واحد من الحكام الأثرياء العالم ووزع ماله على الفقراء ولكنه احتفظ بجزء من ماله لاستعماله الشخصى فلاقاه القديس « باسيليوس » قائلا « حقا ، لقد تركت مركزك ومنصبك ، ولكنك لم تصل بعد إلى مرتبة المتوحدين » .

٣ - كلمة للقديس « امبانيوس » الذى هرب من بلاط الامبراطور الى الصحراء ليجد الله

† « ان بحثنا عن الله فسوف يظهر لنا . وان امسكنا به سريعا فسوف يلازمنا دائما »

٤ - ينبغى الا نصرف سوى يسوع

† قال القديس « الويس » « لن يجد السلام أحد إلا الذى يقول من قلبه أننى أنا والله وحدنا فى العالم » .

٥ - ليس لمغريات العالم القوة لتثنينا عن امتلاك يسوع

† قال الأب « يوحنا » « كانت هناك امرأة جميلة للغاية تسكن فى إحدى المدن وكان لها جمهرة من المحبين . ومرة جاءها أحد نبلاء المدينة وقال : « هل ترضين أن تصيرى لى وأنا أتزوجك » فقبلت فى سرور . وإذ صارت زوجة له غادرت مدينتها لتقطن معه فى قصره . وبعد مدة بحث عنها محبوها الآخرون ولكنهم لم يعثروا عليها ، ولما سمعوا انها صارت زوجة لأحد النبلاء قال بعضهم لبعض : « لو أننا أتينا إلى باب القصر فسوف يكون واضحا أمام الجميع اننا نبحث عنها ، وإذ ذاك نعاقب بدون شك . دعنا نذهب إلى ما وراء البيت ثم نصفر لها كما كنا نعمل معها وقتما كانت حرة بدون زوج . وإذا سمعت هى صفيرنا فسوف تنزل الينا بالطبع » وفعلا نفذوا فكرتهم وسمعت المرأة صفيرهم ولكن - إذ لم تكن ترغب

أن تسمعهم مرة أخرى - دخلت إلى داخل القصر وأغلقت الباب على نفسها . والآن هذه المرأة هى روح الانسان وزوجها النبيل هذا هو المسيح والقصر هو الموطن السماوى الأبدى أما اولئك الذين يصغرون لها فهم الشياطين .

٦ - مشابهة بين شخص قابع يحاصر بامياً الكنز الأبدى ، وبين رامى للقوس يقصر عموده خاصة

+ ان الانسان يحتقر كل الأشياء الحاضرة الوقتية إذا ما ركز كل عقله نحو تلك الأشياء الأبدية الثابتة . وبالنسبة إلى تفكيره الجدى فانه يستمتع ببركة الحياة المستقبلة . ومثله فى هذا مثل من يرغب أن يحصل على (ينشن) جائزة ثمينة - والجائزة هنا هى الفضيلة - بتنشيفه على عدة بعيدة المرمى ، تظهر كعلامة دقيقة للرماية . ورامى القوس يحدق بعينيه حين يبدأ فى الرماية لكى يحكم إصابة الهدف وهو يعرف كم من الفخار سيناله إذا ما أصابه . وانه ليعلم انه سيفقد الجائزة إذا ما حول بصره بعيداً عن تلك العلامة التى أمامه مهما كان التحويل قليلا وبسيطا .

٧ - استحالة امتلاك الكنز السماوى وقت تعلقنا بالملذات الأرضية

+ سأل الأب « مرقس » يوما القديس « ارسانيوس » قائلا « لماذا تركت العالم وازلت من حجة البشر ؟ » فأجاب « ارسانيوس » الله يعلم انى لا اكره الناس. انى أحبهم جداً ولكنى لا استطيع العيش مع الله والناس فى وقت واحد . لان هناك كثير من النعم والفضائل السماوية غرضها واحد ومصدرها ارادة واحدة ، أما بين الناس فليس هكذا لأن مشيئاتهم وأغراضهم مختلفة وقد يوجهوننا بطرق مختلفة أما فى حضر الله فانى أسلك فى طريق واحد مستقيم . اذن فلن أقدر أن أتركه لانه الوحيد الذى استطيع ان انشغل به وأسير وفق ارادته .

° ° °

الفصل الثانى

الصلب مع المسيح

* « ان أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى . » (متى ١٦ : ٢٤)
* « إن الذى يعبر طريق الحياة متخوفاً يحمل الصليب صاغراً والذى يتقدم فى الرجاء يحمل الصليب مستعداً . أما الذى هو كامل فى المحبة فانه يحتضنه بغزارة رجاء . » أحد الآخوة
* « إنى قد قبلت . قد قبلت الصليب من يدك . إنى أحمله وسأحمله حتى الموت كما أمرتنى . » (الاقتداء بالمسيح ٣ : ٥٦)

إن رؤية المسيح لا تخلو من رؤية صليبه . فانه من غير الممكن أن نفكر فيه دون أن نصل فى النهاية الى فكرة الصليب الجدية . ان النفس التى ترغب أن تسكن فى هذا الجو التصويرى الرقيق لقصة الراعى الصالح مثلا لن تستطيع أن تتخلص من التفكير فى هذه الحقيقة الخالدة وهى أن « الراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف » بل إن الذى يتأمل جديا فى ظروف الميلاد المجيد سيرى ظل الصليب واقعاً حتى على بيت لحم . فى تأملنا روعة الملك وجلاله نحتاج إذ نتصوره « حياً الى الابد » أن نتبين جلاله وعظمته من رؤيته « ميتاً » لأجل الجميع . وهكذا عقيدة المسيحيين من كل الطوائف والاجناس فانهم يقرون انه ليس أحوج للناس من أن يعرفوا أن المسيح قد صلب عنهم .

ولعله من الممكن أن نفكر فى صليب المسيح ببساطة كرمز للتضحية العظيمة المقدمة لأجلنا . إلا أن ما نستطيع أن نلم به من معان فى تأملنا إياه هو من العمق بحيث لا حد له . فكل رجل إذن يتسع عقله للتفكير جديا فى سر الحياة التى كان عليه أن يحياها لا بد أنه داخل فى المنطقة الاشعاعية للحب المقدس . ولربما يذهب الانسان من أمام روعة المناطق الجميلة هذه لكى يختطف بصره فى النهاية أمام الرب

نفسه . ولعله يمكن أيضا للنفس فى نقطة معينة من تفكيرها أن تصاب بعدوى حب الله فتأتى لتموت معه فى حبه نظير حبه السابق للجميع . وحينئذ يتحول مرأى الصليب وآلام السيد المسيح إلى رغبة عاطفية أن نتألم نحن أيضا معه . ولعل هذه الرغبة فى ذاتها طبيعية حتى أننا لنستطيع أن نميزها كواحدة من مميزات طبيعتنا . ولعلها تنمو مع اختبار كل واحد يشعر بحب عظيم لأبيه أو أخيه أو زوجته أو طفله أو صديقه . حينما نعانى ألما ما فى محبتنا نزداد رغبة بل ورغما عنا أن نتألم أكثر . ولعل الشعور بالضيق والألم يغمرنا إذا ما تفهنا اننا كنا فى سرور بعدم اهتمام وقتما كان أحد زملائنا الاعزاء يقاسى آلاما مبرحة . لانه من غير المعقول أن نستمر نحن فى ملذاتنا لكى نزيد فى آلامه . بل المعقول ألا نتابع ملذاتنا فى وقت عصيب هكذا .

والآن فقد التمست آلام السيد المسيح فى عقول المتوحدين وألهبت قلوبهم . وكما يسرع الصديق فى التخلص من الضحك حين يرى أحد أعزائه راقداً على فراش الموت هكذا فعل هؤلاء النساك فلأنهم أحبوا الرب حبا عميقا رغبوا من ثم أن ينكروا ذواتهم ويصلبوا ملذاتهم ويقبلوا ضغط الالم وقسوته . ولعل هذا هو السبب الذى دعا القديس « بلاّمون » الشيخ أن يرفض الطعام لانه مطبوخ بكمية زائدة من الزيت الذى تعود أن يقلله فيه . ولعل هذا مثل للتداريب الروحية التى استخرجها المتوحدون من معنى كلمة « الصلب » فان الحرمان من أنواع الاطعمة الشهية وتداريب الجسد المضنية واحتمالهم للقيظ مع العمل اليومى الشاق كانت تعتبر جميعا لديهم بمثابة « الصلب » الذى سلموا أنفسهم له بمحض اختيارهم وبهذا استطاعوا أن يأخذوا نصيبهم من آلام السيد المسيح على الصليب . وكثيراً ما تحدثوا عن الامراض والتجارب كما لو كانت أموراً عادية يقبلونها بترحاب دون تبرم أو تذمر أو تأفف . وقد كانوا يعتبرون هذا النوع من الالم الذى لا يمكن تجنبه كدعم لهم على احتمال رفع الصليب وحمله .

ولم يغب عن ذهنهم أبداً أن الفكرة فى « الصلب » لها منفعة كبيرة لنفوسهم .

ولعلهم شعروا - كما ينبغي نحن أن نشعر - أن « الطريق للتعة الابدية هو الاحتمال هنا مع المسيح » ، ولقد حللوا المنافع التي استفادوها من الآلام وحسبوها وسيلة لتقريبهم من الرب . إلا أنهم شعروا وراء تلك النتائج أن هناك الحقيقة التي تقرر ان الالم ولد مع المسيح من أجل رجاء الحياة الابدية . ولعل هذه الفكرة عن الشركة في آلام السيد المسيح هي التي أوحت الى الرهبان أن يتخيلوا تأملا جميلا رائعا في الآية القائلة « ان أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني » ، فان رغبتهم في تبعية المسيح هي التي تدفعهم دفعا أن يستمتعوا بأن يصلوا الى عمق الاختبار أن « يصلبوا مع المسيح » .

* * *

١ — ماذا يعني حمل الصليب مع المسيح ؟

ربما يسأل الانسان فيقول كيف يقدر الرجل أن يحمل صليبه ؟ وكيف يوافق أن الرجل الحي يصلب ؟ » وهوذا باختصار كيفية ذلك أوضحها أحد آبائنا القديسين : فان خوف الله هو صليبنا وكما أن المصلوب بالجسد لا يقوى على تحريك أطرافه ، في أي اتجاه يريده هكذا وجب علينا أن نصلب شهواتنا ورغباتنا ليس وفقا لمسراتنا بل وفقا للقانون الالهي الذي له الحق أن يوجهنا في الاتجاه الذي يريده . كذلك « المصلوب » على الصليب لن يعتبر الاشياء بذات أهمية أمامه . ولن يفكر بعد في حياته العالمية ، ولن يقلق أو يهتم بالغد . ولن يلق بالا على الكرامة الشخصية أو الاعتداد بالنفس . بل انه لن يحزن من الشتائم التي توجه اليه الآن ولن يفتكر في الشتائم الماضية . وبالجملة : بينما هو يتنفس جيداً ويحيا إلا أنه ميت بالنسبة لكل الأمور الأرضية لأن قلبه متعلق بذلك المكان الذي لا يشك انه واصله عن قريب . لذلك . يجب ، حينما نصلب أجسامنا بخوف الله . أن نموت عن كل متعلقات العالم . ولا نموت فقط عن الرذائل والخطايا بل أيضا عن كل الامور الأرضية فتثبت عقولنا نحو ذاك الوطن الذي اليه نترجى أن ننطلق في أي وقت .

٢ — قصة طريفة عن معجل أنواع الرب محمد عنه

† كان هناك أحد الشيوخ كثيراً ما يصاب بالمرض والهزال . وفى سنة من السنين أحس كما لو لم يكن هناك أى مرض يعتريه ، وشعر براحة تامة . فبكى بحرقه على هذه الحالة الجديدة وكان يقول فى تمسكنة شديدة « لقد تركتنى يا إلهى ، ويبدو أنك لا تريدَ أن تأتى إلى فتلازمنى هذه السنة ! »

٣ — تعزيب القديس « بلامون » عن صلب المسيح

† لما خل عيد القيامة من أحد الأعوام استدعى الأنبا « بلامون » تلميذه « باخوميوس » وقال له « أعدد لنا اليوم طعاما خاصا فاليوم يوم عيد عالمى عظيم ينبغى أن يفرح فيه الجميع » وأطاع القديس « باخوميوس » أمر معلمه الشيخ . وبعد ما أتم القديسان صلواتهما أتى « بلامون » ليتناول طعامه . وإذ رأى ان بعض الزيت قد أضيف على طعامه المعتاد انفجر فى الدموع باكيا وأسند يداه على جبهته وهو يقول « إلهى قد صلب ! وأنا ! آكل زيتاً ؟ ! »

٤ — الصلب مع المسيح يحفظنا فى الباب الضيق مع أمه الكثيرين يتعثرون منه

† سئل أحد الشيوخ من الآباء يوما كيف يتمكن الراهب أن يتجنب إساءة الناس اليه واستهزائهم به حين يراهم يطلقون حياة النسك والوحدة ويرجعون أدراجهم الى أركان العالم . فأجاب الشيخ « تأمل الكلاب التى تصطاد الجرذان . قد يرى كلب منها فقط فريسة أمامه فيطاردها — أما بقية الكلاب فاذ يرون زميلهم يجرى يجرون معه . ولكن إذ لا يبصرون الفريسة بأعينهم يشعرون بالسأم والملل فيتراجعون أما الكلب الذى رآها أولا فانه لا يفتأ يجرى وراءها لعله يمسكها . ولكنه لا يلتفت بالا على كل هذه الأمور بل أنه لا يجد راحته حتى يمسك بفريسته . وهذا هو نفس الأمر مع الناسك الذى يطلب المسيح ويركز نظره بثبات فى الصليب .

فإنه لا يلتفت كلية إلى ما يسيء اليه أو يثنيه عن عزمه . بل انه لا يهتم بشيء سوى أن يكون مرماه أن يصلب مع المسيح ،

٥ - الباب الضيق يؤدى الى الحياة

سئل أحد الشيوخ يوما سؤالا : ما هذا الذى تقرأه عن الباب الضيق والطريق الكرب ؟ فأجاب الشيخ : إن الباب الضيق هو ذلك الباب الذى منه يمر الانسان المنكسر القلب فيحنى نفسه ويذلها لكى تنحل من قيود الارتباط بالشهوة أو الارادة الذاتية . ولعل هذا هو ذات المعنى الذى أشار اليه الرسل حين قالوا « هوذا قد تركنا كل شيء وتبعناك »

الحلقة الخامسة من سلسلة الاختبارات الروحية

اختبار الايمان بما لا نراه بالعيـــان

ترقب ظهوره فى نوفمبر القادم

الفصل الثالث

الموت عن العالم

• حين استهزأ اليهود بالله فبصقوا عليه ، وضربوه ، وقتلوه بأيديهم ، وحين أنكره بطرس ثلاث مرات ، وحين أتهمه الكهنة والرؤساء وغم براءته ، وحين سخر منه العسكر فجلدوه ، فانه لم يتفوه بكلمة ولم يرغمهم ولم يدافع عن نفسه ، ولم يعاملهم بخشونة . بل ولم يلعن صالبيه بأية كيفية

• يا ابنى ينبغى لك أن تجهل أمورا كثيرة ، وأن تحسب نفسك كأنك ميت على الأرض وكأن العالم كله قد صلب لك ، ومات عنك ، (الاقتداء بالمسيح ٣ : ٤٤)

• يجب عليك أن تكون ميتا عن محبة الاصدقاء واعجابهم وإلا فانك ـ حين يزداد اعتبارهم لك ـ سوف تضطر أن تتخلى عن كل صداقة بشرية . (الاقتداء بالمسيح ٣ : ٤٢)

إن فكرة الموت عن العالم لمرتبطة كل الارتباط بفكرة الصلب مع المسيح ، وربما أمكن أن يقال إن الموت عن العالم واحد من الاختبارات التى تترتب عن اختبار الصلب مع المسيح . ولقد جاهد المتوحدون حتى وصلوا بهذا الاختبار إلى أقصى نهاية ممكنة . ومع أنهم فى ذلك يتصرفون ببساطة كالأطفال كما لو كان أمر الجهاد أمرا عاديا ، إلا أن قوة غير عادية بلاشك آزرتهم . ولنضرب لذلك مثلا . فالقديس « مكاريوس » اعتبر أن كونه « يموت عن العالم » يعنى أن يصير جسده ميتاً طالما أن العالم لازال قائماً . فالجسد ـ الذى سوف يدفن ومصيره إلى التراب ـ ليس ثمة مايدعوه أن يغضب من الذم أو يتحرق إلى المدح ، لأن المسيحى الكامل ينبغى أن يكون أصم عن الذم أو التملق . ولعل رواية « أنوب » تصور فى عرضها ذات الفكرة التى أوحت للقديس « انطونيوس » كيفية معاملته للصخرة خارج قلايته . أما القديس « دوروثيوس » ـ الذى حكى « بالاديوس » قصة حياته ـ فقد تمسك باختبار الموت

هذا بطريقة مختلفة أخرى . فهو كان يعتبر أن «الموت عن العالم» هو الحاجة الاكثر ضرورة لجسده من كل الرغبات العقلية الخاصة ـ كالغضب والكبرياء ـ التي تربطه بالعالم الأرضي كمواطن فيه . ولقد كان يقصد من وراء اسكات صرخات جسده أن ينال الراحة والسلام . وعلى كل حال فمهما كانت الحرب الروحية الموجهة ضد العقل أو الجسد فينبغي أن يكون القصد أن نصل إلى الحالة السامية التي فيها يكون طلب الرب هو كل شيء لنا بحيث لا نطلب شيئاً من العالم أبداً .

ولعل هناك نغماً خاصاً في القصص التي تقص علينا اختبار « الموت عن العالم » يذكرنا بتعليم « اللاشموريين » عن « اللاشعور » حتى أن الكثيرين من المتوحدين والنساك المصريين في الغرب بدأوا يقتنون كتاب زعيمهم « انكتيتوس » وبدأوا يقارنون بينه وبين المبادىء الأخلاقية المسيحية . إلا أن هناك فرقاً جوهرياً بين المثل الأعلى له « أيكتيتوس » . فقد كان تعليم اللاشموريين أن الرجل لابد أن يكون ميتاً بالنسبة للقدح أو المدح . وتعليمهم يمتد فقط كل شخص يسيء إلى رغبات جسده . ولكنهم يعتبرون القوة التي بسببها يتعلق الانسان بهذه الحالة اللاشعورية العالية ليست سوى نوعاً من « الكبرياء » لأنهم يعتقدون أن اللص ليست لديه قوة حقيقية للشر ، بدليل أن الرجل الحكيم لا يلق بالا إلى اساءات الناس اليه بل يعتبرها أمراً عاديا جداً . وهم يقررون أن الرجل اللاشعوري لا ينبغي له أن يحسب حسابا للغضب بسبب أفعال الناس الشريرة له لأن كل هذه الشرور في عرفهم ليست شروراً جدية على الاطلاق . وهم لايحسبون أن الأشرار لديهم القوة التي تمس الإنسان الداخلي ـ أو الروح الداخلية ـ تؤثر فيه . أما وجهة النظر المسيحية فتختلف كل الاختلاف عن تعليم هؤلاء . فالمتوحد المسيحي لايهتم كثيراً بصدد إقناع نفسه أن الشرور العادية ليست في قوة الشر الحقيقية . وهو لا يعتقد بأن الكبرياء لها تأثير في اختبار « الموت عن العالم » وبالنسبة لموضوع الذم والمدح فهو لايعتبرهما أمران مختلفين بل يحتقرهما معا . وعلى هذا نتصور أن وجهة النظر الأولى تقرر أن الخطر يحسن التخلص منه طالما أن الروح تعاني ألما نفسيا منه . أما الوجهة المسيحية فهي

سلم تدريجي يمكن المؤمن الصعود عليه للحصول على الكمال الذي في المسيح يسوع . فاذا اعتبرنا أن تعليم القديس « مقاريوس » عن الأجساد الميتة عن الذم أو المدح لايخرج عن نطاق مبدأ « اللاشعوريين » فلعنا نجد أن هذا ليس سوى جزءاً من كل ماعناه القديس حينما نقرأ عنه أنه تراجع أيضاً عن صحبة أصدقائه الذين امتدحوه ، بل وذهب يبحث بشوق عن جماعة من الهجائين ليصطحب بهم . ويبدو لنا تعليم النساك المسيحيين أعمق اختباراً من غيره إذا ما قرأنا المقارنة التي قارن فيها القديس « زخاري » الراهب الزاهد بحلباب وسخ في التراب . وفي الحق أن المتوحد لايناضل أو يتعب مثلما يجاهد اللاشعوري . فإن الأول يحس كل شيء عادياً أمامه إلا نفسه العزيزة عنده . ولكنه يناضل فقط ليفقد كل شيء حتى نفسه طالما هي في نظره من العالم : لكي يلتمس « النفس الجديدة والروح الجديدة » في الله .

* * *

١ - على تابعي الرب أن يقبلوا الحامل التي سبى أنه قبلها هو من الناس

أتى جماعة من الأخوة يوماً إلى الأنبا « موس » طالبين اليه أن يحدثهم بكلمة نصيحة . فتحول إلى تلميذه « زخاري » وأشار اليه قائلا « هل لك أن تقول شيئاً لهؤلاء الأخوة ؟ » فخلع « زخاري » عباءته وألقاها على الأرض ثم داس عليها بقدمه وهو يقول . « انظروا ! إن الرجل لن يستطيع أن يصير قديسا مالم يُدَس هكذا بطريقة ما »

٢ - كلمة للقديس « سيسويس »

قال القديس « سيسويس » « درب نفسك على الألم والمذلة . واطرح إرادتك الذاتية وراء ظهرك . وتحرر من كل الاهتمامات العالمية ، وسوف تحصل على السلام »

٣ - ملخص رواية القديس « أنوب »

سقط جانب من جرم « مازيكي Mazici » يوما في الصحراء الكيتية فانفجر وقتل كثيراً من الآباء الرهبان الذين كانوا يسكنون هناك . ووجد سبعة منهم

الأمان فى الهرب وكان من بينهم القديس « بيمينيوس » وواحدا كبر منه سنا هو القديس « أنوب » ووصل هؤلاء السبعة التاجون إلى « تيرينوثى » وهناك وجدوا معبداً قديما لاله وثنى مهجوراً من عابديه . فآووا اليه عازمين أن يسكنوا فيه أسبوعا معا ،دون أن يتحادث أحدهم مع الآخر ربما يبحث كل منهم عن مكان يبنى فيه لنفسه قلاية منفردة . لأن هؤلاء السبعة عاشوا من قبل نساكا متوحدين .

وكانت فى المعبد صورة للصنم القديم . واراد القديس « أنوب » أن يتجسس فكرة السكن الجماعى التى دخلت عقول الأخوة . فكان يستيقظ كل صباح معتاداً أن يرى حجرة على وجه الصنم . ثم يأتى فى المساء ليقول للصنم « لقد أخطأت . فأرجو أن تسامحنى ! » ولما جاء يوم الأحد واجتمع الأخوة معا قال له القديس « بيمينوس » متسائلا باندهاش « ماذا كنت تفعل طوال الأسبوع؟أتقول - وأنت الانسان المسيحى - لهـــذا الصنم كل يوم سامحنى ؟ ! » حينئذ أجاب « أنوب » قائلا « إننى أفعل هذا من أجلكم . هل ترى غضب الصنم حينما رميته بالأحجار ؟ او هل أظهر سروراً لما طلبت اليه أن يسامحنى ؟ » فأجاب « بيمينوس » « بالطبع لا » حينئذ أردف « أنوب » قائلا « نحن السبعة نسكن هنا معا . فاذا رغبنا أن نبقى هكذا ونحتفظ بحياة روحية سامية فهذا الصنم مثال لنا . فلو سب أو شتم أحدنا فلا ينبغى أن يغضب للحال . ولو طلب من واحد أن يغفر لآخر من أخوته فلا ينبغى أن يعتد بذاته أو ينتفخ . أما إذا كنا نريد أن نعيش معا بخير لكل واحد أن يرحل لأى مكان يرغب أن ينتقل اليه » ، حينئذ سقط الجميع على وجوههم إلى الأرض وتعهدوا أن يعملوا بنصيحة مرشدهم .

٤ - كيف زال « دروثيوس الطيبى » همه ليسمو بروحه

تعود « دروثيوس » فى القديم - حتى فى الأيام الفائظة - أن يقضى سحابة اليوم فى حمل الصخور الثقيلة من شاطىء البحر . ولم يتوقف الرجل لحظة عن هذا العمل حتى حينما كبر فى السن وأحنت ظهره الأيام . وكان لا يفتر عن أن يجمع الأحجار

لبنى لأخوته الرهبان غير القادرين قلايات خاصة بهم . ومرة سأله أحد الرجال قائلا « ولماذا يا أبى فى شيخوختك هذه تضنى جسمك وتعذبه هكذا فى الحر المهلك ؟ » حينئذ أجابه القديس « إن جسدى يعذبنى ويضنينى . وأنا لذلك مزمع أن أضنيه وأستعبده » .

٥ - تعليم القديس "مقاريوس" عن عبارتى "أموت مع المسيح" و"أرقد مع المسيح"

جاء للقديس « مقاريوس » يوما أحد أخوته الرهبان وطلب اليه قائلا « ياسيدى تحدث الى بكلمة نصحية ، حتى إذا ما تأملتها ، أمكننى أن أكون فى أمان » حينئذ أجابه القديس « مقاريوس » قائلا « اذهب إلى المقابر وهناك تهجم على الموتى بالهجاء والشتائم » فتعجب الأخ من كلامه ، ولكنه لم يشأ أن يخالف ما أمر به ، وأخذ الراهب يقذف الأحجار على المقابر وهو يسب كل الأموات . وبعد ما انتهى من ذلك عاد إلى القديس وأخبره عما فعله فسأله إن كان أحداً من الأموات لاحظ ما فعل بهم فأجاب الرجل طبعا بالنفى . حينئذ طلب اليه « مقاريوس » ثانية « عد ثانية هناك وامتدح الأموات فى هذه المرة » فاندهش الرجل اكثر وذهب فنادام كما لو كانوا قديسين أو رسلا وامتدحهم جداً . ثم رجع وأخبر القديس بما فعله . حينئذ سأله « مقاريوس » « أنت ترى إذن أن ذمنا للأموات لم يجلب سخطهم ، وأيضا مدحنا وتملقنا لهم لم يفدهم شيئا بدليل أنهم لم يجيبوا عليك ، فإن أردت حقا الخلاص فينبغى أن تصبح مثل هؤلاء الأموات . فلا تهتم أبداً باخطاء الناس واساءاتهم اليك ولا بالمدح الذى يمتدحونك به . كن كالأموات . وسوف تجد الأمان والنجاة »

٦ - كيف يصنع الانسان السموم بجنبه الغيرة والشامتة

رأى أحد النساك مرة جماعة من الرجال حاملين ميتا ويشيعونه إلى مثواه الأخير فقال لهم « حسنا عملتم مع الميت . ولكنكم تعملون أحسن لو تفعلون هذا بالاحياء ، فبذلك تصيرون صانعى سلام وتنالون بركات الرب »

٧ - عائقان يعرقلان الناس عن اعتبار « الموت عن العالم »

قال القديس « بيمينيوس » « لا يعتبر الراهب ميتا عن العالم إلا إذا تعلم أن يبغض شيئين : إراحة الجسد ، والنفخة الكاذبة التي تترتب عن مدح الناس » .

٨ - حكمة للقديس « انطونيوس »

تحدث القديس « انطونيوس » يوما إلى الأب « عمون Ammon » فقال أمامك طريق طويل لكي تنمو في خوف الرب . وإذ قاده بعيداً عن الصومعة وأراه صخرة من الصخور أردف يقول له « إذهب وأسي إلى هذه الصخرة . أضربها بلا هوادة ، ففعل ذلك « عمون » وإذ ذاك سأله « انطونيوس » « إذا كانت الصخرة قد أجابت بشيء فأجاب ذاك بالنفي . حينئذ قال له القديس « انطونيوس » « ينبغي أن تتخذ لنفسك موقف الصخرة فلا تعرف متى يحاول الناس أن يسيئوا اليك أو يفتكوا بك » .

٩ - كيف تجنب مقاريوس ملاطفة الذين قالوا بتقديسه

لم يكن أي إنسان يأتي الى القديس « مقاريوس » باحترام ليأخذ نصيحته يتوقع أن ينال سؤله منه . أما الذي كان يأتيه بغلظة واحتقار قائلا « انظر أيها الواقف هناك ! أنت يا أب مقاريوس ! يامجرم وادي النطرون ! هوذا سيدك ينتقم منك ويعذبك هنا من أجل اجرامك وسرقاتك ! » ، فكان يلقاه بالترحاب ويحادثه في سرور عن كل احتياجات نفسه .

الفصل الرابع

مقابلة الشر بالخير

«أحبوا أعداءكم . باركوا لاعنيكم . أحسنوا الى مبغضيكم .
وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم .» مت ٥ : ١٤

والآن يمكننا أن نمر سريعاً على ما علمنا إياه المتوحدون بشأن اختبار «الموت عن العالم» لننتقل الى القصص التى تشرح لنا اختبار «مقابلة الشر بالخير» والواقع اننا حينما نستعرض اختبار «الموت عن العالم» باعتباره مترتب عن احتمال أخطاء الغير - نحار كيف نميز بينه وبين اختبار مقاومة الشر بالخير فلا نستطيع إلا بالكاد أن نبوّب لكل اختبار القصص والأقوال المأثورة التى تخصه . إلا أننا لو دققنا إلتأمل لأدركنا أن هناك ثمة فرق شاسع بين قصص كل من الاختبارين فان تلك التى تختص باختبار «الموت عن العالم» لها علاقة وثيقة بحياة المتوحد الداخلية الشخصية ، ومن ثم فان لذتها وتأثيرها يتركزان فى حالة روحه الذاتية ومقدار تعمقها فى اختبار احتمال الألم مع المسيح . أما بالنسبة لتلك التى تعالج موضوع مقابلة الشر بالخير، فان تأثيرها الخلقى المترتب على عمل المتوحد ينصب على ذات الرجل المخطىء فيؤثر فى حياته هو أكثر من غيره . قد يكون هذا الاختلاف غير واضح المعالم لأنه فى الحالين يمكن أن نلمس ونرى صليب المسيح . ولكن حينما تنشغل الروح كلية بآلام الصليب ، وتحترق المحبة شوقاً للاشتراك بكل العاطفة فى هذه الآلام فان القصص هنا تعنى صلب النفس والموت عن العالم . بينما من الناحية الأخرى ، حينما تتضخم فكرة الموت على الصليب كتضحية - أى بذل حياة إنسان من أجل آخرين - إذ ذاك نأتى إلى نوع من القصص تتوقف فكرتها الرئيسية على التأثير فى الآخرين مثلما فعل المسيح من أجل الخطاة . ولعل هذه الفكرة تشرق لنا بأكثر لمعان ووضوح خلال التأمل الذى قصد به القديس «بيمن Poemen» أن

يفسر الكلمات ، ليس حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه ، وهنا يستطيع عقل القارئ أن يرجع بالذكرى حالا الى صليب المسيح ، فيرى كم تكون مشاركة السيد فى عمله الفدائى من أجل الآخرين أكثر تأثيراً من مجرد مشاركة المسيح فى آلام صليبه . ولعل ذات الفكرة تحضر للذهن - بل وتظهر بوضوح - فى قصة الرجل الشيخ الذى قبل يدى الأخ الذى سرقه .

ومن هذا يتضح انه ليس هذا الجزء من تعاليم المتوحدين بمستغرب لأى مسيحى . بل من المستحيل أن ننتقد سلوكهم هذا أو أن نتهمه بالتمادى إذا ما واجهتنا كلمات المسيح فى موعظته على الجبل . وفقط المستغرب هو أن هؤلاء فهموا أكثر مناكيف يطبقون كلمات السيد المسيح بطلاقة معتبرين إياها قانوناً عملياً من قوانين الحياة المسيحية الفضلى . لذا يحتاج غالبية الناس إلى بعض الايضاحات مع شىء من الاقناع قبلما يمكنهم قبول تعاليم الرب ومبادئه التى يعول عليها فى توجيه الحياة العادية . فضرورى فى عرف الناس كتابة تفسير أو إيضاح قرين الآية القائلة ، إذا طلب أحد ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، لكى يقدروا أن يحرصوا على التفريق بين ماتظهره لنا الحياة ضروريا وبين ذاك الذى يمتدحه المسيح كتعليم أسمى . أما بالنسبة للمتوحدين وتلاميذهم فليس ثمة ضرورة من ضرورات الحياة أثارتهم بالكلية لأنهم حفظوا تعاليم المسيح وأطاعوها تماما كما لو كانت هذه الطاعة طبيعة فيهم . وبعكس ما قد يتصوره كثير من الناس ، ليست هذه الطاعة الأدبية متسمة فى مواتهم وخمولهم أو فى انفصالهم عن الروابط الاجتماعية بل تتسم بالحرى فى ميزاتهم الخلقية العالية التى لا تقبل المناقشة ، بل وفى الغالب ، فى خدمتهم للخطاة وردهم عن طريق الخاطئة والشر . لذلك فان سلوك القديس « أناستاسيوس Enastasius » نحو الأخ الذى سرق كتابه كان يعد - من وجهة نظر العالم - حماقة : لأن العالم لا يتصور أن هناك كينونة وحياة لجماعة يقال عن غالبية أفرادها أنهم لا يرفضون معاقبة المجرمين فحسب بل ويكافئون اللصوص أيضا . ولا بد على هذا القياس أن القديس « مقاريوس » فى معاونته التى قدمها للصوص الذين سطوا على قلايته قد وصل الى منتهى الحماقة وأقصاها . إلا أن

و أنستاسيوس » بمعاملته للص استطاع أن ينتشل روح أخيه المسكين من الهلاك والخسارة الأبدية . أما عن « مقاريوس » فنحن لا نستطيع أن نتصور كثرة الخدمات التي أسداها الى اللصوص إلا ونزداد إيماناً بأن روح القديس كانت روح الله بذاتها.

ولعله من العجيب أن يفزع قلب إنسان من رؤية واحد يحول خده الآخر للاطمه دون أن يفهم عمق المعنى الأدبي للآية القائلة « .. من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضا » . ومثل هذا وغيره يحاولون التنصل من مواجهة هذا القانون الأدبي وهم يريدون من ثم أن يعفون من طاعته . إنهم لا يهتمون بالبحث وراء معنى الكلمات التي هي كفيلة بأن تمكنهم من التفكير في أنفسهم وفي طاعة الرب ، بل بالحري يصرون ألا يحفظوا كلام الرب أو يطيعوه بالتمام .

ولعل وجهة نظر المتوحدين المسيحيين التي تساموا بها عن وجهة نظر العالم من جهة هذا الاختبار تظهر لنا بوضوح في قصة الناسك الذي كتب له القديس « بويمين » خطابا . ولعل ما عمله هذا الناسك لما هاجمه اللصوص يبدو عملا طبيعيا ومصيبا حينما صرخ طالبا المعونة ومن ثم أمسك اللصوص وسجنوا . إلا أن ما عمله بلا شك لم يدع ضميره يستريح ولعل « بيمين » في خطابه له أراد أن يكشف له خطية نفسه — التي هي الانتقام — فيعرفه لماذا أتعبه ضميره . فربما رأى نفسه مضطراً نظير ذلك أن يقتدي بالقديس « مقاريوس » في مثل هذه الأحوال . أجل ! ربما سأل نفسه أولا : « إذا كنت أساعدهم فما فائدة الحكومة إذن ؟ وأية حضارة في العالم تصرح بتقييد حرية الناس ومضايقتهم في حياتهم ؟ ! » ولكننا نخال أن المتوحدين لا يجيبون على أمثال هذا السؤال . بل ربما يتخلصون منه بأن يردفونه بسؤال ثان « ولكن كيف يكون موقفي من تعاليم المسيح ومطالبها في هذا الصدد ، وكيف أواجهها ؟ ! »

* * *

١ — كيف بارك أحد الشيوخ رهبانا قد أساء إليه

أتى يوما أحد الاخوة إلى قلاية راهب شيخ كان معروفاً بين إخوته بالقداسة .

وإذ دخلها سرق الطعام الذى كان بها ورآه الشيخ ولكنه لم يشأ أن يتهمه أو يغلظ له القول ؛ بل كل ما عمله انه ازداد انشغالا بشغله اليدوى لكى يستعيض به بعض طعامه المسروق لو أمكن . وقال فى نفسه « لست أشك ان أخى لا بد فى حاجة شديدة الى الطعام . ربما سرق طعامه فأتى ليأخذ طعامى ! » ورغم الجهد الكبير الذى بذله الرجل الشيخ فى عمله كثيراً ما عانى آلاما مبرحة من حاجته الى الطعام . وأخيراً وصل الى حال الموت . وإذ علم الاخوة أنه يحتضر جاءوا وأحاطوا بسريره. وإذ لحظ الشيخ بينهم الراهب الذى سرق طعامه دعاه اليه ثم أمسك بيديه يقبلهما وقال لمن حوله « يا أخوتى . اننى أشكر هاتين اليدين لأنهما كانتا سببا فى سرعة انطلاقى الى ملكوت السموات »

وأحس الراهب الشرير بضربات عنيفة فى قلبه أشعرته بخطيته فتاب وندم . وقد صار أخيراً راهباً غيوراً تأثر من عمل الراهب الشيخ معه فاقتدى به فى حياته.

٢ — الرغبة فى الانتقام تفصل الانسان عن الله

أساء أحد الرهبان مرة الى أحد زملائه . فأتى الأخير الى القديس «سيسويس» وشرح له ما حدث له من إساءة زميله له ثم أردف يقول « اننى أرغب يا أبى أن أنتقم منه » وعبثا حاول القديس العجوز أن يقنعه بالاقلاع عن الانتقام ويدع النقمة بين يدى الرب . ولكن الراهب أصر فى عناد قائلا « اننى لا أرتاح إن لم آخذ لنفسى بالثأر كما ينبغى » حينئذ . قال له « سيسويس » « إذن فما دام عقلك لا يفهم ما قلته لك وأنت مصر على الانتقام ، فدعنا الآن من هذا ولنقف معاً لنصلى » وإذ ذاك قام وبدأ يصلى بهذه الكلمات « يا ربى . انك غير محتاج الينا وكذا نحن لسنا فى احتياج الى عنايتك بنا وحراستك لنا . فنحن بذواتنا قادرين أن نثأر لأنفسنا » وما أن سمع الأخ الراهب هذه الكلمات حتى سقط على قدمى الرجل الشيخ وتوسل اليه أن يطلب من أجل مغفرة الرب له ثم قال « ما دمت قد غضبت هكذا بسببى ، فلن أتشاحن معه بأى حال من الآن »

٣ — اذا أسيء اليك .. فاشعر دائما : أنك لم تكن تقصد شخصيا بالاساءة

أتى مرة أحد الاخوة — وكان قد أسيء اليه من آخر — الى أحد الرهبان الشيوخ وأخبره بقصته وما حدث له . فكانت هذه هي إجابة الأب الشيخ التي قالها له « أرح عقلك من جهة الإساءة التي أساء بها اليك أخوك . انك لم تقصد شخصيا بالإساءة . ولكن الذي كان مقصوداً بالإساءة هي خطاياك . في كل مرة يسيء اليك أحد لا تحاول أن تغضب أو تكره ذاك الذي أساء اليك . لا تدنه . بل قل ببساطة ساعتئذ : انها لأجل خطاياي ، وأنا لذلك أستحقها ! »

٤ — وصية

جاء أحد الاخوة يوماً الى راهب متقدم في السن يطلب منه كلمة نصيحة حتى إذا ما حفظها وأطاعها يخلص نفسه فأجاب العجوز قائلا « حينما يفعل الناس بك شراً تحمل وكن صامتاً . فان فعلت هذا فنعما ما فعلت . انه أفضل من أية وصية أخرى »

٥ — انه من ينفذ هذا الامتياز يشارك الرب في آلامه

سأل أحد الاخوة مرة القديس « بوعين » قائلا « ما هذه العبارة التي قالها الرب في الانجيل : ليس حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه من أجل أحبائه ؟ وكيف يمكن لإنسان أن يفعل هذ الأمر ؟ » فأجاب الرجل الشيخ « قد يسمع إنسان من صديق له إساءة وسبا كفيلين بأن يثيرانه ، وقد يكون في مقدوره ساعتئذ أن يرد الإساءة بمثلها ويجيب على صديقه بنفس الأسلوب . ولكن لو تحامل على نفسه وتحمل كل ما يقال في صمت وهدوء عازما ألا يتفوه بأية كلمة من شأنها إغضاب أو إثارة زميله فان هذا الشخص حقاً يضع نفسه — بتضحيته واحتماله — من أجل صديقه »

٦ — محاورة بين القديس « أنطونيوس » وبعض الاخوة

أتى للقديس « أنطونيوس » يوما جماعة من الرهبان يطلبون منه كلمة نصيحة

توجههم الى حياة النعمة والكمال . وهو بدوره أجابهم « ألعلكم لا تسمعون الكتاب ! إن الكلمات التى انفرجت عنها شفتا المسيح لتعليمكم لهى كافية لكم » ولما ضغطوا عليه وألحوا فى طلب كلمة نصح منه قال لهم « أما قرأتم ما قاله الانجيل أن من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا ؟ » فاعترفوا أمامه بعجزهم عن تنفيذ هذه الوصية . فسألهم « أنطونيوس » « أهذا صعب عليكم ؟ أو لا تريدون أن تسمحوا لشخص أن يلطمكم مرتين ؟ » فأجابوه « بالطبع لا نريد » طامعين أن يرشدهم الى نصيحة أسهل فى تنفيذها من هذه . ولكنه قال لهم « إذا لم يكن هذا فى مقدوركم فليس أقل من أن تتجنبوا مقابلة الشر بالشر » فأجابوا عليه مثلما أجابوا أولا : وحينئذ استدار « أنطونيوس » الى تلميذه الواقف بجواره وأسر اليه قائلا « اذهب وعد ببعض الطعام لهؤلاء الناس فانهم منهوكين » والتفت للاخوة السائلين قائلا « اذا كنتم لا تستطيعون أن تعملوا شيئا كهذا ولا ترضون أن تعملوا شيئا آخر بدله ، فلماذا أتيتم لتسألونى كلمة نصيحة ؟ انى أرى انكم لستم فى حاجة إلا إلى الصلاة . وبهذا يكشف الرب أمامكم وسيلة الكمال المبتغى »

٧ — قصة «القديس « مقاريوس »

كان للقديس « مقاريوس » — وقد عاش فى مصر — فرصة مرة أن يغادر قلايته فترة من الزمن . وعند عودته اكتشف لصا يسرق كل ما فى القلاية . فوقف القديس يراقبه كما لو كان شخصا أجنبيا يراقب عملية السرقة . ثم ذهب اليه وحمل الحصان له مما كان فى القلاية وصرفه وهو يقول الرب أعطى الرب أخذ . انه يريد أن يحدث كل ذلك . فليكن إذن اسم الرب مباركا »

٨ — كيف كسب القديس «أناستاسيوس» نفس لص أثيم

كان للقديس « أناستاسيوس » مخطوط ثمين من الرق يحوى العهدين القديم والجديد وكان يقدر بمبلغ كبير من المال . وحدث يوما أن جاءه أحد الاخوة لزيارته فلمح المكتوب الخطى وسولت له نفسه أن يأخذه لنفسه فسرقه عند خروجه .

وبعد قليل اشتاق « أناستاسيوس » أن يقرأ فى الكتاب فبحث عنه ولكنه لم يجد له أثراً . وللحال فهم أن أخاه الذى زاره هو الذى سرقه ولكنه لم يشأ أن يستدعى اللص أو يطلب كتابه منه خشية أن يكذب اللص فيقرر أن الكتاب ليس عنده فتزيد خطية الكذب على خطيته فى السرقة .

أما اللص فقد أخذ المكتوب وذهب تواً إلى مدينة مجاورة ليبيعه وإذ جاءه واحد ليشتريه حدد للمكتوب ثمناً معيناً . واستمهله الشارى قائلا « اسمح واعطنى هذا الكتاب لأسأل عما إذا كان يساوى هذا الثمن الكثير أم لا » فأعطاه إياه وذهب الرجل للتو للقديس « أناستاسيوس » وقال له « يا أبى . أتنظر هذا الكتاب ؟ هل ترى انه يساوى هذا الثمن حقا ؟ انه بهذا الثمن يريد إنسان أن يبيعنى إياه » . فأجابه « أناستاسيوس » « انه كتاب ثمين . ويستحق الثمن الذى عرض به عليك » عندئذ رجع الرجل إلى البائع وهو يقول « خذ الثمن الذى حددته . فلقد عرضت الكتاب على القديس « أناستاسيوس » وأخبرنى انه كتاب قيم يستحق تماما هذا الثمن » حينئذ سأله السارق قائلا « وهل أضاف القديس « أناستاسيوس » كلاما آخر حدثك به عن هذا الكتاب ؟ ! » فرد الرجل « كلا . انه لم يزد عما قلته لك . فهذا كل ما قاله » حينئذ أجابه السارق « لقد غيرت فكرى ثانية فى هذا الأمر ولست أرغب الآن أن أبيع هذا الكتاب بالكلية ! » قال هذا وقلبه يكاد ينفطر . ثم أسرع الى قلاية القديس « أناستاسيوس » وارتمى على الأرض وهو يذرف دموع الندامة متوسلا الى القديس أن يسترد كتابه . ولكن « أناستاسيوس » رفض أخذ كتابه قائلا « اذهب ! الرب يباركك يا أخى ! خذ الكتاب لنفسك فقد وهبته لك بدون مقابل » ولكن الرجل ألح ببكاء وتوسل قائلا « ما لم تسترجع كتابك يا أبتى فلن أجد لنفسى سلاماً بأية كيفية » وبعد جهد طويل رضى القديس أن يسترجع كتابه . وبقى هذا الأخ بعد ذلك مع المبارك « أناستاسيوس » وشاركه فى قلايته حتى مات .

٩ — الذى يقاوم الشر يخدع نفسه والناس أيضا

كان يسكن قديما فى جبل « أثليبيوس Athlibeuc » أحد كبار المتوحدين . وحدث أن هاجمته يوماً جماعة من اللصوص فصرخ للتو فأسرع الرهبان الساكنون فى الصوامع المجاورة لنجدته وفعلا أمكنهم القبض على اللصوص . واقتيد المجرمون لأقرب مدينة حيث صدر الحكم عليهم بالسجن . وإذ سمع الرهبان بهذا الحكم غمرهم الأسى من أجل تسييهم فى سجن هؤلاء اللصوص . وذهبوا للقديس «بوينين» وأخبروه بما حدث . فكتب هذا بدوره رسالة للأب الذى هاجم اللصوص فى هذه الكلمات « لقد خدعت اللصوص بمعاقبتك لهم . وتذكر أنها ليست الخدعة الأولى التى عملتها فلقد خدعت أولا نفسك . ولو لم تكن قد انخدعت بالشر إذ قاومت الاساءة الموجهة اليك منهم أولا لما كنت توصلت لهذه الخدعة الثانية التى تحزنك وتؤلمك »

١٠ — كيف أن إساءات الناس لنا قد تكون وسيلة لبلوغنا الكمال

كان هناك يوما راهب يؤمن بهذه الفكرة تماما . وكان كلما سبه واحد أو أساء اليه كلما إزداد شوقا الى طلب صحبته وصداقته . ولقد عبر مرة عن هذا الاختبار الجميل بقوله « إن هؤلاء الذين أطلب صحبتهم وصداقتهم هم الذين يقدمون لى الفرصة لبلوغ الكمال . أما أولئك الذين يتكلمون حسنا عنا ويباركوننا فانهم قد يستدرجوننا أحيانا للعثرات . وهم فى ذلك يخدعوننا »

الفصل الخامس

محبة الخطاة

- ومن أمثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر (مت١٨:٦)
- ولا تعامل بعنف من كان مجرماً . بل جزه المحبة التي كنت تروم لنفسك . (الاقتداء بالمسيح)

ان تعليم المتوحدين عن موضوع « محبة الخطاة » لأكثر ارتباطا - مما قد تتصوره من أول وهلة - بموضوع مقابلة الشر بالخير . وبالنسبة للمسيحي العادي لعل الخطية الوحيدة التي يصعب التغاضي عنها هي الخطية الموجهة إلى شخصه . فكل إنسان يجد الأمر صعبا عليه أن يغفر لانسان أساء اليه . ولكن هذا الأمر بالنسبة للمسيحي العادي لا بد أكثر صعوبة منه على إنسان عاش على مثال المسيح . وبالعكس فان الانسان الفاتر في غيرته للحق يجد الأمر سهلا عليه أن يصفح عن خطأ لا ينجم عنه إساءة الى شخصه . أما بالنسبة للانسان المفرط في تعصبه للخير فمن أشق الأمور عليه أن يتنازل عن خطية غرضها الإساءة الى الله المعتبر لديه انه القوة الموجهة للخير . ولعل هذا هو السبب في أن كثيراً من الرجال الغيورين على الدين غالبا ما يتهمون بالصرامة وعدم اتساع الصدر . والواقع انه بمقدار ما تعتبر استباحة الرجل العالمي نقطة ضعف ميتة تنكرت على صورة فضيلة خادعة فيه ، بمقدار ما تعتبر شدة الرجل الخير وحدته عثرات تنجم طبيعياً عن الصرامة غير المقبولة .

ولا ينكر أحد أن المتوحدين كانوا بلا شك الغيورين على الحق . فليس ثمة ما يدهشنا إذن لو وجدنا أن حماستهم قادتهم في أحيان كثيرة لأحكام خشنة قاسية على الخطاة . ولكن الذي يدهشنا بالحق أن الكثيرين منهم قد تساموا على تلك العثرة التي كان يبدو من غير الممكن تجنبها لملازمتها لهم ، وحلت محلها فيهم عواطف

المحبة والأشفاق المسيحى . وفى هذه الفضيلة ـ كما فى كل فضيلة أخرى ـ يتلألأ نجم القديس « أنطونيوس » متفوقا على كثيرين . ولعلنا نستطيع أن نتحقق رجولته وعظمته حينما نستشف سموه الخلق بقراءتنا روايته عن السفينة التى كسرتها الأمواج بل كم كانت كلمة لها مغزاها وأثرها تلك التى فاه بها القديس « بيزاريون Besarion » حينما طرد الكاهن الأخ الشرير من الكنيسة . إن مثل هذه الشفقة على الخطاة لابد أنها كانت تنبع من حب عميق وحقيق . ولاشك أن الناس الذين لهم هذا الحب لابد أنهم قد أدركوا بالتحقيق مغزى هذه الكلمات « إن من يثبت فى المحبة يثبت فى الله لأن الله محبة » إن الوسيله التى بها يتحقق الرجل ـ الذى زادت غيرته للحق عن محبته للآخرين ـ من غلطته لهى وسيلة عجيبة . لعله من السهل علينا جداً أن نفهم سلوك ذلك الناسك الذى صب جام غضبة بلا اشفاق ولا هوادة على الأخ الذى أخطأ . ولعلنا نستطيع أن نصوره رجلا فظا قاسيا هوائيا صارم المعاملة . ولكن كم يصعب علينا أن نتحقق من سرعة الإدراك الروحى لذلك الرجل الذى فهم للتو مغزى ماروواه عليه القديس « باستور Pastor » واستعداده الشخصى للاعتراف بحقارته نظير فعلته .

وربما كان ذلك الشعور القلبى المتسع الذى أبداه القديس « باستور » فى رده على الأخ الذى رغب أن يقيم ولمة لأخوته غير متوقع إذا ما قسناه بالشفقة العادية على أولئك الذين يخطئون . ولكن شعور « باستور » كان بلاشك إنسانية طلقة متسعة. ولعل كلماته التى قالها فى قصتـــه كانت تشبه كلمات الرب التى قالها عن المرأة «عملت ماعندها » مرقس ١٤ : ٨

وقد يختلط الأمر علينا لو أننا تعرضنا لقصة الراهب الذى كذب لينقذ نفس أخ له . ففى هذه القصة يجد الناقد مرتعا خصبا للناقشة والتحليل . ولكن هذا الفصل من القصة ـ أى كذبة الراهب ـ بدا كما لو لم يحدث فى مخيلة المتقدمين من الأخوة . وهم لم يجدوا الكذبة فى حد ذاتها ، بل محبة الأخ الذى اقترف الكذب ، وقد قدروه كرجل ذى قصد شريف تشبه بسيده بأن وضع نفسه من أجل صديقه .

وفى قصة تخليص الناسك لأخته الفاجرة من إثمها لمسة إنسانية حقة . ولكن الشطر

الأخير من القصة هو الذى يحدثنا بطلاقة عن الصحارى المصرية التى حصلت فيها حوادث القصة . ربما لم يتسامر الرجال بعد هذه الحادثة لفحص هذه القصة الأكيدة عن خلاص المرأة الخاطئة ولكن الرب هو الذى كشف لهم الرد على تساؤلهم، ومن هنا يمكننا أن نتحقق كم كانوا قريبين جداً فتوصلوا إلى محبة الله حتى قدروا أن يتلقوا هذه الرؤيا . ولعلنا حينما نتذكر ذلك لأنفسنا ، يبدو لنا العمر كله كما لو كان مسافة قصيرة جداً ـ بل متناهية فى القصر ـ إلى الندامة .

° ° °

١ ـ كيف قاسى القديس « انطونيوس » خاطئاً تائباً

حدث يوماً أن واحداً من الأخوة النساك فى جماعة القديس « إيليا Elias » سقط فى الخطية . فما كان من الجماعة إلا أنها لفظته من زمرتها . فخرج المسكين للتو ليلوذ بالقديس « انطونيوس » الذى كان ساكناً فى الجبل الداخلى وقتئذ . وبعد أن أسكنه معه فترة من الزمن أطلقه ثانية ليرجع إلى الجماعة التى سبق أن كان منضماً لها . ولكن الأخوة إذ رأوه ، دفعوه للحال بقسوة وطردوه ثانية . فهرب حينئذ ـ كما فعل أولاً ـ للقديس « انطونيوس » وهو يقول « يا أبى : أنهم سوف لا يقبلوننى » فتأثر القديس باكتئاب وبعث للأخوة برسالة قائلاً « قاست إحدى المراكب أعاصير شديدة فى البحر . وفقدت نتيجة ذلك كل حمولتها . إلا أن البحارة استطاعوا بعد مجهود شاق أن يرسوا المركب إلى البر . ترى أتريدون الآن أن تدفعوها بعنف إلى أعماق الموج فتغرقوا المركب التى أنقذت منذ قليل ؟ » وفض الأخوة الرسالة وحللوا ألفاظها . وإذ فهموا مغزاها غمرهم كثير من الخجل وللحال قبلوا الأخ الذى سبق أن أخطأ .

٢ ـ كيف شارك « بيزاريون » ابنباء ما قيل عن الرب « أنه يأكل مع العشارين والخطاة »

أخطأ أحد الأخوة يوماً فأمره الكاهن أن يخرج خارج الكنيسة وطرده من الجماعة وصحبتهم . حينئذ قام القديس بيزاريون وخرج مع الرجل وهو يصيح « وأنا أيضاً رجل خاطئ » ،

٣ - كيف قابل « باستور » يوماً رقيقاً فى معاملة « أحد هؤلاء الصغار » .

جاء أحد الرهبان يوماً إلى القديس « باستور » قائلا « انى أشتغل باجتهاد فى حرث أرضى وزراعتهـــا لأنى أرغب أن أولم وليمة للاخوة » فأجابه « باستور » قائلا « الله يباركك يا ابنى . أنك تعمل عملا طيباً » فخرج الرجل حينئذ مسروراً وبدا يشتغل بأوفر اجتهاد لعله يستطيع أن يضيف شيئاً إلى الحفلة التى كان فى سبيل اعدادها . ولكن القديس « أنوب » لما سمع ما قيل انتهر « باستور » قائلا له « هلا تخاف الله حتى تكلمت هكذا أمام الرجل مؤيداً اياه أن يقيم حفلته ؟ » فتأثر القديس « باستور » وصمت فى حزن . وبعد يومين أرسل فى استدعاء الأخ الذى سبق أن تحدث اليه . وإذ جاء الأخ ـــ وكان « أنوب » ساعتئذ حاضراً ـــ سأل « باستور » هذا الأخ قائلا « ماذا كنت تطلب منى أول أمس ، لأن دماغى كان يلف حين أجبتك ؟ » فأجابه الأخ « لقد أخبرتك عن زراعة حقلى ، وعن محصوله ، وعن الحفلة التى كنت مزمعا عملها » حينئذ قال له القديس « باستور » « لقد ظننت أنك كنت تتكلم عن اخوتك الذين لم يزالوا فى العالم . إن عمل الحفلات ليس لائقا للناسك والمتوحد » وكانت صدمة شديدة للرجل حين سمع هذا الكلام فصاح فى حزن « ولكن لست أعرف عملا طيبا آخر لأعمل ، بل ولا أقدر أن أعمل عملا غير هذا . هلا أحرث الأرض وازرعها من أجل أخوتى ! ؟ ! » وإذ قال هـذا خرج . وكم تأسف القديس «أنوب» ساعتئذ حتى أنه قال « عفوك يا أبى . عفوك ! » فأجابه « باستور » صه ! لقد كنت أعرف من البداية أن عمل الولائم ليس من واجبات الراهب . ولكنى تكلمت مع الرجل حسب مقدرته العقلية . وعلى الأقل أثرت عقله ووجهته نحو عمل من أعمال المحبة . والآن هو حزين ويائس . وسوف تكون وليمته مزيجا من الحزن واليأس .

٤ — قصة الأذى مخلص نفسى أخيه

ذهب اثنان من الاخوة يوما معا إلى المدينة ليبيعا صنع أيديهما خلال العام المنصرم . وافترق أحدهما ليشترى بعض الحاجيات الضرورية لهما .. بينما انتظره

زميله فى فندق ، وفى ساعة شر سقط هذا الزميل فى الاثم . ولما رجع الآخر اليه قال له (ها قد حصلت على كل ما طلبنا . فهيا بنا الآن نعود إلى قلايتنا) ولكن الذى فعل الاثم أجاب (انى لن أقدر على العودة معك) فتحير الآخـــر وسأله (ولكن لماذا لا يمكنك العودة ؟ !) فاعترف الرجل حينئذ وقال (لأنى حين كنت وحدى هنا وأنت غائب سقطت فى الخطية . والآن يستحيل على أن أرجع ثانية) وإذ كان الآخر يحب زميله الخاطىء ويرغب أن يربحه ويخلصه قال (وأنا أيضا بينما كنت خارجا بعيداً عنك سقطت مثلك تماما . ولكن على كل حال ينبغى أن نرجع إلى قلايتنا ونتوب . إن كل شىء مستطاع لدى الله . وهو بالحرى يستطيع أن يغفر لنا إذا ما تبنا فلا يسمح لنا بأن نتردى فى نار جهنم الأبدية) وإذ ذاك عاد هذان الاثنان معا إلى قلايتهما . ثم ذهبا إلى الأخوة الشيوخ المجاورين لهما وسقطا عند أرجلهم واعترفا أمامهم بتجربتيهما . فأمرهما الشيوخ بتدريب روحى . ونفذ الأخ الذى لم يخطىء هذا التدريب من أجل خاطر زميله الذى كان يكن له كل الحب . ونظر الرب من السماء ورأى عمل المحبة القوى هذا وبعد زمن كشف الرب الأمر كله للآباء فرأى هؤلاء المحبة الفائقة التى أظهرها هذا الأخ الذى لم يفعل الخطية وكيف ضحى بنفسه من أجل خلاص أخيه وكيف فتح الرب أحضانه للخاطىء . وقالوا جميعا (هذا هو عين المكتوب فلقد وضع هذا الأخ حياته من أجل خلاص صديقه) .

٥ — لنفكر فى خطايانا الشخصية قبلما ندين انساناً

حدث مرة أن أحد الاخوة الرهبان سقط فى الاثم يوما بينما كان فى أحـــد الاجتماعات الروحية . وكان موجوداً يومئذ فى هذا المكان راهب ذائع الصيت بسبب وحدته وتقواه . فما كان من رئيس الجماعة إلا أن أبلغه بقصة زلة الراهب الخاطىء وإذ سمع الراهب هذا الكلام صرخ قائلا (اطردوا هذا الرجل) فما كان من رئيس الجماعة إلا أن طرده خارجا . وذهب الرجل بعيداً إلى مكان منعزل وطلب لعله

يتدرب فى القفر على قبح جسده واظهار الندامة والتوبة . وحدث ساعتئذ أن مر جماعة من الاخوة بهذا الرجل فى طريقهم لقلاية القديس (باستور) فسمعوا هذا الرجل يبكى فى هذا المكان الموحش . فأتوا اليه ووجدوه مثقلا بالحزن . وإذ أشفقوا عليه سألوه أن يرافقهم إلى قلاية القديس (باستور) ولكنه أصر فى عناد ألا يذهب معهم وكان يقول لهم (دعونى امكث هنا وأموت) وحينما أتى هؤلاء الاخوة الى (باستور) أخبروه عن الرجل الذى وجدوه يبكى فى القفر . وإذ ذاك رجاهم أن يعودوا ثانية ويقولوا له (ان باستور يأمرك ان تحضر اليه) ولما سمع الرجل المسكين هذه الكلمات قام للفور وذهب معهم . واذ رآه (باستور) وعلامات الأسى والكآبة بادية عليه قام وقبله . وإذ رحب به جداً أعطاه طعاماً ولحماً ليأكل . وفى نفس الوقت ارسل الى الناسك الذى أدان الخاطىء أحد الاخوة بالرسالة الآتية (لقد سمعت عنك الكثير . والآن لى اشتياق منذ زمن أن أراك . فلذا أناشدك ـ لو أراد الله وكان هذا مناسبا لك ـ أن تستعد للحضور هنا) وإذ قض الناسك الرسالة وقرأ هذه الكلمات ربما تحدث الى نفسه بالقول (ليس من شك أن الله كشف له أى نوع من الرجال أنا ! ولذا فقد أرسل فى استدعائى !) وقام للتو وذهب لقلاية القديس (باستور) وبعد ما حيا كل منهما الآخر وجلسا معا قال (باستور) للناسك (كان يوجد رجلان يسكنان معا فى مدينة واحدة . وفى بيت كل منهما كان يرقد جثمان لصديق له ميت . فنسى كل منهما صديقه الميت وما ينبغى عمله من نحوه ، وذهب ليبكى فى جنازة صديق الآخر) فلما سمع الناسك هـذه الكلمات ونفذت الى قلبه انفطر فؤاده فاعترف حقا أنه غضب على خطية الآخر بينما تغافل عن خطية نفسه . وحينئذ قال (لابد أن باستور يسكن فى السماوات ، أما أنا فلم أزل اسكن هنا على الأرض السفلى !)

٦ — حكمة للأنبا (موسى)

قال الأنبا (موسى) يوما (ما لم يقتنع الانسان فى قرارة قلبه بأنه خاطىء فلن يتصت الله إلى صلواته) وسمعه أحد الاخوة فسأله (وماذا تعنى باقتناع الانسان من كل قلبه انه خاطىء ؟) فأجابه الرجل الشيخ قائلا (إن الذى يحيط بكل خطاياه وينشغل بها لن تتاح لعينيه الفرصة للانشغال برؤية خطايا الآخرين).

٧ — كيف استطاع راهب أن يكسب نفس امرأة خاطئة

عاش أحد الرهبان قديماً فى فلايته بمصر وكان مشهوراً بتواضعه . ولكن كانت له أخت عاشت فى المدينة همها الوحيد هو افساد اخلاق الرجال واهلاك نفوسهم فى الاثم . وكم من مرة حاول اخوته اقناعه بالذهاب اليها . وبالبكاء رضى ان يذهب لعله يستطيع أن يستميلها عن حياة الشر . ولما أتى إلى المدينة أسرع واحد قبله إلى بيت الفاجرة واخبرها أن أخاها قادم ليراها . وإذ سمعت هذا - وكانت هى تحب أخاها - تركت محبيها الذين جاءوا لمسامرتها وجرت لمقابلته دون أن تفكر حتى فى تغطية رأسها . وإذ رآها أخوها أحاط ذراعيه بها وهو يقول (أختاه ! يا أختى العزيزة . اشفقى على نفسك . هلا عرفت أنه بسببك يهلك الكثيرون ؟ ! كيف يمكنك أن تصبرى على مرارة هذه الحياة التى تحبينها ؟ ! بل وكيف يمكنك احتمال عذابات الأبدية ! ؟) فاهتز جسمها بقوة وقالت (أخى ! هل انت متأكد انه لا زال لى خلاص للآن ؟) فأجابها اخوها (إن أردت فخلاص نفسك ميسور جداً) وإذ ذاك سقطت عند قدميه وتوسلت اليه أن يأخذها معه فى الصحراء . فقال لها (إذهبى اذن. غطى رأسك ثم تعالى لتتبعينى) ولكنها اجابت (لا . بل دعنا نذهب للتو . انه أهون على أن أسير فى الشوارع عارية الرأس امام الناس من ان اعود ثانية إلى المكان الذى اخطأت فيه !) وإذ ذاك سارا معا . وفى الطريق اخذ يشرح لها طريق التوبة . واخيراً بينما هما فى رحلتهما رأيا بعض الرجال مقبلين نحوهما فى الطريق . فقال لها أخوها (طالما أن هؤلاء الرجال لا يعرفون انك أختى

خليتك ما تتحولين قليلا إلى جانب الطريق إلى أن يعبروا ويبتعدوا) وبعد ما عبر الرجال ناداها قائلا (يا أختي تعالى لنعاود السير معاً في الطريق) ولما لم تجبه ذهب ليراها فوجدها قد سقطت ميتة واذ بآثار قدميها مطبوعة بالدماء فانها سارت طول الطريق حافية القدمين .

ولما سمع الشيوخ هذه القصة أخذوا يتناقشون في امكانية خلاص مثل تلك المرأة . وأخيراً كشف الرب لاحدهم حقيقة الأمر : فطالما انها لم تهتم بجسدها وآلامها في الطريق فلابد أنها لم تحتسب لقروح قدميها سوى أنها ارادت أن تهرب بهما من الهلاك الى الحياة الأبدية السعيدة . لذلك ، فالرب - من أجل خاطر رجاء قلبها - قد قبل توبتها وخلصها .

٨ – كيف تخلص راهب شيخ من خطاياه بواسطة لطف وصبر تلميذه

اشتهر أحد الرهبان قديماً بإدمانه الخمر . وقد اعتاد أن ينسج حصيرة صغيرة كل يوم وبعد أن يبيعها يشتري بثمنها خمراً . وبعد مدة أتاه أخ صغير وسكن معه كتلميذ له . وكان هذا الأخير ينسج حصيرة كل يوم . فكان الراهب السكير يأخذ حصيرة الرجل أيضاً ويبيعها ويشتري بثمنها خمراً له ورغيفاً واحداً للرجل ليقتات به . وقد اعتاد أن يسهر في الليل فيأتي إلى زميله في ساعة متأخرة منه . ومرت ثلاث سنوات على هذه الحال والرجل الجديد لا يتفوه بكلمة تذمر . وأخيراً قال لنفسه (انني شبه عار ، لأن ملابسي قد تهرأت علي . وانا اكاد أهلك من شدة حاجتي إلى الطعام . انه افضل لي أن أرحل من هذا المكان !) ولكنه عاد يحادث نفسه قائلا (ولكن أي مكان استطيع أن أذهب اليه يكون افضل من هذا المكان ! ؟ سوف أبقى هنا لأجـــل خاطر الرب . وسوف احتمل الحياة التي أحياها !) وفي الحال بعد ما انتهى من تفكيره أتاه ملاك الرب وقال له (ليس ثمة ما يدعو الى رحيلك من هنا . فغداً سوف نأتي اليك) وحينئذ قال التلميذ للرجل الشيخ (لا تترك القلاية يا كير يا أبتي فإن اصدقاء لي سوف يأتون ليأخذوني .)

وفى اليوم التالى فى الساعة التى تعود فيها الشيخ أن يغادر القلاية الى القرية المجاورة لم يصبر على الانتظار فقال لتلميذه «لست أظن أن أصدقاءك سيأتون اليوم ؟ فقد تأخر الوقت جداً» ولكن الأخ توسل اليه أن ينتظر قليلا فلابد أن يأتوا سريعاً . وبينما هو يتكلم مع الشيخ واتاه الموت فرقد فى سلام . ولما رآه الشيخ ميتا بكى بحرارة . وصرخ فى أسى «واخسارتاه ! واخسارتاه يا ابنى ! لقد عشت طوال هذه السنين مهملا فى حياتى . أما أنت ، فقد اقتنيت نفسك وخلصتها بصبرك» ومن هذا الوقت وقد بدأ الرجل الشيخ حياة جديدة حتى شهد له بالتقوى وحسن السيرة .

٩ - كيف كسب مقاريوس محبة كاهنا وثنيا المسيح

ذهب القديس «مقاريوس» يوما فى رحلة إلى جبل «نيتريا Nitria» وكعادته أرسل تلميذه أمامه فى الطريق . وبينما يسير التلميذ فى الطريق إذا به يلتقى بكاهن وثنى حاملا فوق كتفيه كتلة خشبية ضخمة . فتهجم عليه قائلا «إلى أين أنت ذاهب أيها الشرير؟ وما هو مصيرك ؟ !» فامتلأ الكاهن حنقاً واستشاط غضباً من هذه الكلمات وأوسع التلميذ ضرباً حتى تركه فاقد الوعى مغمى عليه . ومضى الكاهن فى طريقه حتى التقى بعد قليل بالقديس «مقاريوس» وحياه الأخير بقوله «السلام لك ياصديق التعبان السلام لك» فأجاب الكاهن «أى شىء طيب تراه فىَّ حتى تحيينى بهذا السلام !» فرد مقاريوس: «إننى أطلب لك السلام لأنى أراك تتعب نفسك دون أن تدرى ماهو مصيرك فى الحياة !» حينئذ قال الكاهن «إن كلماتك تلمس قلبى . لابد انك بالحقيقة خادم أمين للرب . أما ذاك الراهب البائس الذى تهجم على وسبنى فى الطريق فقد رددت على كلماته باللكمات» وجثا الكاهن ممسكا بقدمى القديس وهو يقول «إنى لن أتركك حتى تعلمنى أن أكون راهباً ناسكا» وسار الاثنان معا إلى أن وصلا إلى المكان حيث رقد التلميذ المغمى عليه . وتعاونا على حمله إذ رأياه غير قادر على المشى وسارا به إلى الكنيسة وهناك صعق الأخوة اندهاشا حينما رأوا الكاهن الوثنى بصحبة مقاريوس ولكنهم سرعان ما فهموا القصة وأخذوا يعلمونه حتى صار راهبا . وأقبل كثيرون من الوثنيين من ثم ليرتشفوا من الدين الجديد . وكثيراً

ما كان يقول « مقاريوس » بعدئذ « انظروا . كم تحول الكلمات الخفاء المتهوسة الرجال الطيبين إلى رجال فاسدين ! بينما تعمل كلمات المحبة الرقيقة الهادئة على تغيير الأشرار إلى أبرار فيتجددون ! »

١٠ - كيف ستر القديس « عمون » خطيئة أحد الأخوة بينما عيره من خطرها

عزم القديس « عمون » أن يزور أحد الأخوة من ذوى الصيت الشرير ليأكل معه خبزاً . وحدث يومئذ أن امرأة تسللت إلى قلاية هذا الراهب . وإذ أحيط سكان هذا المكان علما بذلك تجمهروا معاً فى حشد كبير مصممين أن يطردوا هذا الرجل من قلايته ، ولكنهم رأوا أن يصطحبوا معهم القديس « عمون » فسألوه أن يرافقهم ولما لمح الراهب هذا الجمع مقبلا اليه أسرع فخبأ المرأة فى صندوق كبير بالقلاية . ولما وصل الجميع إلى القلاية تجسس « عمون » ما عمله الرجل ولم يشأ أن يفضح أمره من خاطر الرب. بل دخل القلاية وجلس فوق الصندوق وأمرهم أن يبحثوا عن المرأة . ولما بحثوا فى كل مكان دون أن يعثروا على المرأة قال لهم القديس « عمون » يالكم من أناس أساتم الثقة فى أخيكم ؟ ! الله يسامحكم من أجله ! ثم صلى معهم وأمرهم بالانصراف . ولما ذهبوا جميعا أخذ مقاريوس الرجل من يده وقال « يا أخى . كن حذراً ! » وإذ أتم عبارته هذه ترك الرجل ومضى . .